

تفسير سورة الحج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده بتقواه ومخبراً لهم بما يستقبلون من أهوال يوم القيامة، وزلازلها، وأحوالها ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ قيل إن زلزلة الساعة قبل قيام الناس من أجدانهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَلَّلْنَا الْأَرْضَ زَلْزَالًا ﴿١﴾ وَأَخْرَجْنَا الْأَرْضَ أَنْفَاقًا ﴿٢﴾﴾ [الزلزلة: 1، 2] وقال تعالى: ﴿وَجَلَّتِ الْأَرْضُ رَجًا ﴿٤﴾ وَبَسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ [الواقعة: 4، 5] وقيل: هذه الزلزلة بعد قيام الناس من قبورهم يوم نشورهم إلى عرصات القيامة. ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ أي أمر عظيم، وخطب جليل، وطرق مفتح، وحادث هائل، وكائن عجيب.

﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا نَخَعًا وَوَجْدًا ﴿١﴾ وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾﴾

﴿يَوْمَ تَرَوُنَّهَا﴾ هذا من باب ضمير الشأن، ولهذا قال مفسراً له ﴿نَخَعًا وَوَجْدًا﴾ أي فتشتغل لهول ما ترى عن أحب الناس إليها، والتي هي أشفق الناس عليه، تدهش عنه في حال إرضاعها له ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ﴾ أي من شدة الأمر الذي قد صاروا فيه، فدهشت عقولهم، وغابت أذهانهم، فمن رآهم حسب أنهم سكارى ﴿وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾

يقول تعالى ذاماً لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى مغرضاً عما أنزل الله على أنبيائه متبعاً في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مرید من الإنس والجن، وهذا حال أهل البدع والضلال المعرضين عن الحق المتبعين للباطل ويتركون ما أنزل الله على رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رؤوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء ولهذا قال في شأنهم وأشباههم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾.

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٤٤﴾ ﴾

﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، يعني كتب عليه كتابة قدرية ﴿ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴾ أي اتبعه وقلده ﴿ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ أي يضلّه في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلّم المقلق، المزعج.

﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْتُونَ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُصُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٥﴾ ﴾

لما ذكر تعالى المخالف للبعث المنكر للمعاد ذكر تعالى الدليل على قدرته تعالى على المعاد بما يشاهد من بدئه للخلق فقال ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾ أي شك ﴿ مِّنَ الْبَعْثِ ﴾ وهو المعاد، وقيام الأرواح والأجساد يوم القيامة ﴿ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ﴾ أي أصل برئه لكم من تراب، وهو الذي خلق منه آدم ﷺ ﴿ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ﴾ أي ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِّن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴿٥٨﴾ ﴾ [السجدة: 8] ﴿ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ ﴾ وذلك أنه إذا استقرت النطفة في رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك، يضاف إليه ما يجتمع إليها، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً، ثم تستحيل فتصير مضغة أي قطعة من لحم ولا شكل فيها ولا تخطيط، ثم يشرع في التشكيل والتخطيط، فيصور منها رأس ویدان، وصدر وبطن، وفخذان ورجلان، وسائر الأعضاء، فتارة تسقطها المرأة قبل التشكيل والتخطيط، وتارة تلقىها وقد صارت ذات شكل وتخطيط ولهذا قال تعالى: ﴿ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ ﴾ أي كما تشاهدونها ﴿ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ آجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ أي تارة تستقر في الرحم، لا تلقىها المرأة ولا تسقطها. وفي الصحيحين «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين ليلة نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات، فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد ثم ينفخ فيه الروح» ﴿ ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ﴾ أي ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه وبطشه وعقله، ثم يعطيه الله القوة شيئاً فشيئاً، ويلطف به ويحنن عليه والديه في آناء الليل وأطراف النهار، ولهذا قال ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ﴾ أي يتكامل القوي ويتزايد، ويصل إلى عنفوان الشباب وحسن المنظر ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُؤْتُونَ ﴾ أي في حال شبابه وقواه ﴿ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُصُرِ ﴾ وهو الشيخوخة والهزم وضعف القوة والعقل والفهم وتناقض الأحوال من الخرف وضعف الفكر، ولهذا قال ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ وقوله: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً ﴾ هذا دليل آخر على قدرته

تعالى على إحياء الموتى كما يحيى الأرض الميتة الهامدة، وهي المقحلة التي لا ينبت فيها شيء ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت أي تحركت بالنبات، وحييت بعد موتها وربت أي ارتفعت لما سكن فيها الثرى ثم أنبتت ما فيها من الألوان والفنون من ثمار وزروع وأشجار النباتات في اختلاف ألوانها وطعومها وروائحها وأشكالها ومنافعها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي حسن المنظر طيب الريح.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي الخالق المدبر الفعال لما يشاء ﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا الأرض الميتة، وأنبت منها هذه الأنواع ﴿إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمَتَّحِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: 39].

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ (٧)

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي كائنه لا شك فيها ولا مرية ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ أي يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمماً، ويوجدهم بعد العدم، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَبَيَّنَّا خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشْتَبَ مِنْهُ تُوقَدُونَ ﴿٨٠﴾ [يس: 78 - 80].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨)

لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ﴾ (٣) [الحج: 3] ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع فقل ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ (٨) أي بلا عقل صحيح، ولا نقى صريح، بل بمجرد الرأي والهوى.

﴿ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (٩)

﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ مستكبراً عن الحق إذا دعي إليه، أي لاوي عطفه، وهي رقبته يعني يعرض عما يدعى إليه من الحق ويشني رقبته استكباراً كقوله تعالى: ﴿وَفِي مَوْصِئٍ إِذْ أَرْسَلْتُهُ إِلَىٰ رُحُونٍ يَسْأَلِينَ مِثْلَ بَرْكِيِّهِ﴾ [الذاريات: 38، 39] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾ (١١) [لقمان: 61] ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأُ رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (٥) [المتفقون: 5] وقال لقمان لابنه ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: 18] وقوله: ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ هي لام العاقبة، أو لام التعليل، ثم إما أن يكون المراد بها المعاندين، أو أن يكون المراد بها أن هذا الفاعل لهذا، إنما جبلناه على هذا الخلق الدنيء لنجعله ممن يضل عن سبيل الله ﴿لِمُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ﴾ وهو الإهانة والذل، كما أنه لما استكبر عن آيات الله

لَقَاءَ اللَّهِ الْمَذَلَّةَ فِي الدُّنْيَا، عَاقِبَةٌ فِيهَا قَبْلَ الْآخِرَةِ، لِأَنَّهَا أَكْبَرُ هَمِّهِ، وَمَبْلَغُ عِلْمِهِ ﴿وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ ﴿١٠﴾

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ أي يقال له هذا تقریباً وتوبيخاً ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ كقوله تعالى: ﴿خَذُوهُ فَأَعْتَلُوهُ إِلَى سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صَبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَبِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ [الدخان: 47 - 49].

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ ﴿١١﴾

﴿عَلَى حَرْفٍ﴾ على شك، أو على طرف، ومنه حرف الجبل أي طرفه، أي دخل في الدين على طرف، فإن وجد ما يحبه استقر، وإلا انشمر. روى البخاري عن ابن عباس ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ قال: كان الرجل يقدم المدينة، فإن ولدت امرأته غلاماً، ونتجت خيله قال: هذا دين صالح، وإن لم تلد امرأته، ولم تنتج خيله قال: هذا دين سوء ﴿أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ أي ارتد كافراً، وقوله: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أي فلا هو حصل من الدنيا على شيء، وأما الآخرة فقد كفر بالله العظيم فهو في غاية الشقاء والإهانة، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ أي هذه هي الخسارة العظيمة، والصفقة الخاسرة.

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ ﴿١٢﴾

﴿يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ﴾ أي من الأصنام والأنداد يستغيث بها ويستنصرها ويسترزقها، وهي لا تنفعه ولا تضره ﴿ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ .

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ ﴿١٣﴾

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرَّهُمْ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ أي ضرره في الدنيا قبل الآخرة أقرب من نفعه فيها، وأما في الآخرة فضره محقق متيقن وقوله: ﴿لَيْسَ الْمَوْلَىٰ﴾ يعني الوثن، يعني بشس هذا الذي دعاه من دون الله مولى، يعني ولياً وناصراً ﴿وَلَيْسَ الْعَشِيرُ﴾ وهو المخالط والمعاشر، واختار ابن جرير أن المراد لبس ابن العم والصاحب.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا

يُرِيدُ﴾ ﴿١٤﴾

لما ذكر أهل الضلالة الأشقياء عطف بذكر الأبرار السعداء من الذين آمنوا بقلوبهم، وصدقوا إيمانهم

بأفعالهم، فعملوا الصالحات من جميع أنواع القربات، وتركوا المنكرات، فأورثهم ذلك سكنى الدرجات العاليات في روضات الجنات. ولما ذكر تعالى أنه أضل أولئك وهدى هؤلاء قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ بَنَصِرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ (١٥)

قال ابن عباس: من كان يظن أن لن ينصر الله محمداً ﷺ في الدنيا والآخرة ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ﴾ أي بحبل ﴿إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي سماء بيته ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ يقول: ثم ليختنق به. وقيل: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾ أي ليتوصل إلى بلوغ السماء فإن النصر إنما يأتي محمداً من السماء ﴿ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾ ذلك عنه إن قدر على ذلك. وقول ابن عباس أولى وأظهر في المعنى وأبلغ في التهكم، فإن المعنى من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه، فإن الله ناصره لا محالة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدَاءُ﴾ [عافر: 51] ولهذا قال ﴿فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ.

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ (١٦)

﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ﴾ أي القرآن ﴿آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي واضحات في لفظها ومعناها حجة من الله على الناس ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ﴾ أي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، وله الحكمة التامة، والحجة الفاطعة في ذلك ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: 23] أما هو فلحكيمته ورحمته وعدله وعلمه وقهره وعظمته فلا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب.

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَنْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (١٧)

يخبر تعالى عن أهل هذه الأديان المختلفة من المؤمنين ومن سواهم من اليهود والصابئين والذين أشركوا فعبدوا مع الله غيره فإنه تعالى: ﴿يَنْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ويحكم بينهم بالعدل فيدخل من آمن به الجنة، ومن كفر به النار، فإنه تعالى شهيد على أفعالهم، حفيظ لأقوالهم، عليم بسرائرهم، وما تكن ضمائرهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ (١٨)

يخبر تعالى أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً، وسجود كل شيء مما يختص به كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَنْفِيوُنَّ ظِلَلُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ ذَاخِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النحل: 48] وقال ههنا ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي من الملائكة في أقطار السماوات والحيوانات في جميع الجهات من الإنس والجن والدواب والطيور ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: 44] وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ إنما ذكر هذه على التنصيص لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [فصلت: 37] وفي الصحيحين عن أبي ذر قال: قال لي رسول الله ﷺ «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت» وأما الجبال والشجر فسجودهما بغير ظلالهما عن اليمين والشمالين ﴿وَالدَّوَابُّ﴾ أي الحيوانات كلها، وقد جاء في الحديث عن الإمام أحمد أن رسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ ظهور الدواب منابر، فرب مركوبة خيراً وأكثر ذكراً لله تعالى من راكبها، وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي يسجد الله طوعاً مختاراً متعبداً بذلك ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي ممن امتنع وأبى واستكبر ﴿وَمَن يَهِنُ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي رضي الله عنه أن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة، فقال له: يا عبد الله، خلقك الله كما تشاء أو كما شاء؟ قال: بل كما شاء، قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟ قال: بل إذا شاء، قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء؟ قال: بل حيث يشاء، قال: ولو قلت غير ذلك لضربت الذي فيه عيناك. وفي الحديث: «إذا قرأ ابن آدم السجدة اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا ويله أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرت بالسجود فأبيت فلي النار» رواه مسلم.

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾﴾

ثبت في الصحيحين عن أبي ذر أنه كان يقسم قسماً أن هذه الآية ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ نزلت في حمزة وصاحبه، وعتبة وصاحبه يوم برزوا في بدر - وصاحبا علي هما حمزة وعبدة، وصاحبا عتبة هما شيبه بن ربيعة والوليد بن عتبة - أو اختصم المسلمون وأهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: نبينا قبل نبيكم وكتابنا قبل كتابكم، فنحن أولى بالله منكم، وقال المسلمون: كتابنا يقضي على الكتب كلها، ونبينا خاتم الأنبياء، فنحن أولى بالله منكم، فأفلق الله الإسلام على من ناوأه، وأنزل الله ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾ أو مثل الكافر والمؤمن اختصما في البعث، أو هم المؤمنون والكافرون، وهذا القول يشمل الأقوال كلها ﴿فالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ أي فصلت لهم مقطعات من النار، ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾.

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ ﴿٢٠﴾

أي إذا صب على رؤوسهم الحميم، وهو الماء الحار في غاية الحرارة تذوب جلودهم.

﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾

﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾ روى الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ قال «لو أن مقمعا من حديد وضع في الأرض فاجتمع له الثقلان ما أقلوه من الأرض» وقال ابن عباس في قوله: ﴿وَلَهُمْ مَقْلَعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾ ﴿٢١﴾ قال: يضربون بها فيقع كل عضو على حياله فيدعون بالثبور.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ﴿٢٢﴾

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ عن سلمان قال: النار سوداء مظلمة، لا يضيء لها، ولا جرها، ثم قرأ ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ...﴾ وقال الفضيل بن عياض: والله ما طمعوا في الخروج، إن الأرجل لمقيدة، وإن الأيدي لموثقة، ولكن يرفعهم لها، وتردهم مقامعها. ﴿وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ كقوله: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ﴾ [السجدة: 20] ومعنى الكلام أنهم يهانون بالعذاب قولا وفعلا.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ﴿٢٣﴾

لما أخبر تعالى عن حال أهل النار - عباداً بالله من حالهم - وما هم فيه من العذاب والنكال والحريق والأغلال، وما أعد لهم من الثياب من النار ذكر حال أهل الجنة، ونسأل الله من فضله وكرمه فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي تتحرك في أكنافها وأرجائها وجوانبها، وتحت أشجارها، وقصورها، يصرفونها حيث شاؤوا أو أين أرادوا ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ من الحلية ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي في أيديهم كما قال النبي ﷺ في حديث المتفق عليه «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الضوء» ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ في مقابلة ثياب أهل النار التي فصلت لهم، لباس هؤلاء من الحرير: إستبرقه وسندسه، كما قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُدُسٌ خُصْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَنَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ ﴿٢١﴾ [الإنسان: 21] وفي الصحيح «لا تلبسوا الحرير ولا الديباج في الدنيا فإنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة».

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ﴾ ﴿٢٤﴾

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ كقوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: 23] وقوله: ﴿وَاللَّيْكَةُ يَدْخُلْنَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ ﴿٢٢﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَدَّقْتُمْ فِعْمَ عُنُقِي الدَّارِ ﴿٢٤﴾ [الرعد: 23، 24] ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ

لَتَحِيدَ ﴿٢٤﴾ أي إلى المكان الذي يحمدون فيه ربهم على ما أحسن إليهم، وأنعم به وأسداه إليهم، أو هدوا إلى الطريق المستقيم في الدنيا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ يُظَلِّمِ تَزْلِيمًا مِّنْ عَذَابِ إِلَهِمْ ﴿٢٥﴾﴾

يقول تعالى منكرًا على الكفار في صدهم المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام، وقضاء مناسكهم فيه، ودعواهم أنهم أولياؤه ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَائِهِ إِلَّا الْمُشْكُونَ﴾ [الأنفال: 34] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي ومن صفاتهم أنهم مع كفرهم يصدون عن سبيل الله ويصدون عن المسجد الحرام من أراده من المؤمنين الذين هم أحق الناس به في نفس الأمر. ﴿الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَنكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ أي يمنعون الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وقد جعله الله شرعاً سواء، لا فرق فيه بين المقيم فيه والناهي عنه البعيد الدار منه ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ﴾ تقديره إلحاداً، فالباء زائدة، أو ضمن الفعل معنى بهم ولهذا عده بالباء فقال ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَاكِ﴾ أي يهيم فيه بأمر فظيع من المعاصي الكبار ﴿يُظَلِّمِ﴾ أي عامداً قاصداً أنه ظلم ليس بمأول.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَاتِ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرَ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾

هذا فيه تفریح وتوبيخ لمن عبد غير الله وأشرك به من قريش في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر تعالى أنه بوأ إبراهيم مكان البيت، أي أرشده إليه، وسلمه له، وأذن له في بنائه، واستدل به كثير ممن قال: إن إبراهيم عليه السلام هو أول من بنى البيت العتيق، وإنه لم يبن قبله كما ثبت في الصحيحين عن أبي ذر قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «بيت المقدس» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ [آل عمران: 96] وقوله: ﴿أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ أي ابنه على اسمي وحدي ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِيَ﴾ من الشرك ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ أي اجعله خالصاً لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها ﴿وَالْقَائِمِينَ﴾ أي في الصلاة، ولهذا قال ﴿وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ فقرن الطواف بالصلاة لأنهما لا يشرعان إلا مخصصين بالبيت، فالطواف عنده، والصلاة إليه في غالب الأحوال إلا ما استثنى من الصلاة عند اشتباه القبلة، وفي الحرب، وفي نافلة السفر، والله أعلم.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ أي ناد في الناس بالحج داعياً لهم إلى الحج إلى هذا البيت الذي أمرناك ببنائه، وقوله: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ استدلل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى أن الحج ماشياً لمن قدر عليه أفضل من الحج راكباً، لأنه قدمهم في الذكر، والذي عليه الأكثرون أن الحج راكباً أفضل اقتداء برسول الله ﷺ، فإنه حج راكباً مع كمال قوته عليه السلام. وقوله: ﴿يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ﴾ طريق. وقوله: ﴿عَمِيقٍ﴾ أي بعيد، وهذه كقوله تعالى: ﴿فَأَجْعَلِ آفِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَىٰ آلِهِمْ﴾ [إبراهيم: 37] فليس أحد من أهل الإسلام إلا وهو يحن إلى رؤية الكعبة والطواف، والناس يقصدونها من سائر الجهات والأقطار.

﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾﴾

قال ابن عباس ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ قال منافع الدنيا والآخرة، أما منافع الآخرة فرضوان الله تعالى، وأما منافع الدنيا فما يصيبون من منافع البدن والذبايح والتجارات. ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ﴾ الأيام المعلومات أيام العشر. وفي حديث البخاري عن النبي ﷺ «ما العمل في أيام أفضل منها في هذه» قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله إلا رجل يخرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء» وهذا هو العشر الذي أقسم الله به ﴿وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾﴾ [الفجر: 1، 2] وقال بعض السلف: أنه المراد بقوله: ﴿وَأَتَمَمْنَهَا بِعَشْرِ﴾ [الأعراف: 142] وفي سنن أبي داود أن رسول الله ﷺ كان يصوم هذا العشر، وهذا العشر مشتمل على يوم عرفة، وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ سئل عن صيام يوم عرفة فقال: «أحتسب على الله أن يكفر السنة الماضية، والآتية» ويشتمل هذا العشر على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر، وقد ورد في حديث أنه أفضل الأيام عند الله، وفضل هذا العشر كثير على عشر رمضان الأخير لأنه يمتاز باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل: ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر، وتوسط آخرون، فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة. والله أعلم ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ والأكثر على أن الأكل من لحوم الأضاحي مستحب، وقيل: بوجوبه، وهو غريب ﴿وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ﴾ هو المضطر الذي عليه البؤس، وهو الفقير المتعفف.

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ هو وضع الإحرام من حلق الرأس ولبس الثياب وقص الأظافر ونحو ذلك ﴿وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ يعني نحر ما نذر من البدن. ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ يعني الطواف الواجب يوم النحر.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣١﴾﴾

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ حُرْمَتِ﴾ أي ومن يجتنب معاصيه ومحارمه، ويكون ارتكابها عظيماً في نفسه ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾ أي فله على ذلك خير كثير، وثواب جليل ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآنَعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي أحللتنا لكم جميع الأنعام، وما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام وتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به. ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾.

﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهَوَّىٰ بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَجِيٍّ ﴿٣٢﴾﴾

﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ﴾ مخلصين له الدين ﴿فَتَخَفَفَهُ الطَّيْرُ﴾ أي تقطعه الطيور في الهواء ﴿سَجِيٍّ﴾ بعيد مهلك لمن هوى فيه.

﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْتِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْتِرَ اللَّهِ﴾ أي أوامره ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ ومن ذلك تعظيم الهدايا والبدن، وعن ابن عباس: تعظيمها استسماها واستحسانها. وصحيح البخاري «ضحى بكشين أملحين أقرنين».

﴿لَكَرَّ فِيهَا مَنَفِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٤﴾﴾

﴿لَكَرَّ فِيهَا مَنَفِعٌ﴾ أي لكم في البدن منافع من لبنها وصوفها وأوبارها وأشعارها وركوبها إلى أجل مسمى ﴿ثُمَّ مَحْلُهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ أي محل الهدى وانتهاؤه إلى البيت العتيق، وهو الكعبة كما قال تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَمْبَةِ﴾ [المائدة: 95].

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرُّوا إِلَهُ وَجِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٥﴾﴾

يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك، وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل. وقوله: ﴿لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ كما ثبت في الصحيحين عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ بكشين أملحين أقرنين فسماهم وكبر ووضع رجله على صفاحهما. ﴿فَاللَّهُ كَرُّوا إِلَهُ وَجِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ أي معبودكم واحد، وإن تنوعت شرائع الأنبياء، ونسخ بعضها بعضاً، فالجميع يدعون إلى عبادة الله وحده لا شريك له. ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ المطمئنين، أو المتواضعين، أو المخبتين الذين لا يظلمون، وإذا ظلموا لم ينتصروا.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمُ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (٣٥)

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت منه قلوبهم ﴿وَالصَّادِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ﴾ أي من المصائب ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ أي المؤدين حق الله فيما أوجب عليهم من أداء فرائضه ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي وينفقون ما آتاهم الله من طيب الرزق على أهلهم وأقاربهم وفقرائهم ومحاوليهم، ويحسنون إلى الخلق مع محافظتهم على حدود الله، وهذه بخلاف صفات المنافقين، فإنهم بالعكس من هذا كله.

﴿وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٣٦)

يقول تعالى ممتناً على عبده فيما خلق لهم من البدن، وجعلها من شعائره، وهو أنه جعلها تهدي إلى بيته الحرام، بل هي أفضل ما يهدي إليه كما قال تعالى: ﴿لَا تُلْجَأُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آيَاتِنَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة: 2] والبدنة البقرة والبعير ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ أي ثواب في الدار الآخرة، عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحب إلى الله من إهراق دم، وإنها لتأتي يوم القيامة بقرونها وأظلافها وأشعارها، وأن الدم ليقع من الله بمكان قبل أن يقع من الأرض، فطيبوا بها نفساً» رواه ابن ماجه والترمذي وحسنه. ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ﴾ عن جابر بن عبد الله قال: صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه فقال: «بسم الله والله أكبر، هذا عني، وعمن لم يضح من أمتي» رواه أحمد وأبو داود والترمذي ﴿صَوَافٍ﴾ قياماً على ثلاث قوائم معقولة يدها اليسرى يقول باسم الله والله أكبر لا إله إلا الله اللهم منك ولك. ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ سقطت إلى الأرض. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ أمر بإباحة، وقال مالك: يستحب ذلك، وقال غيره: يجب. والقانع: المستغني بما أعطيته وهو في بيته، والمعتر الذي يتعرض لك ويلم بك أن تعطيه من اللحم، ولا يسأل. ﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ﴾ أي ذللناها لكم، وجعلناها منقاداً لكم خاضعة، إن شتمت ركبتكم، وإن شتمت حلبتم، وإن شتمت ذبحتم.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَائُهَا وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٣٧)

يقول تعالى إنما شرع لكم هذه الهدايا الضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنه الخالق الرازق لا يناله شيء من لحومها ولا دماؤها، فإنه تعالى هو الغني عما سواه، وقد كانوا في جاهليتهم إذا ذبحوها لآلهتهم وضعوا عليها من لحوم قربانهم، ونضحوا عليها من دماؤها ﴿وَلَكِنَّ يَنَالُهُ النُّفُوسُ مِنْكُمْ﴾ أي يتقبل ذلك ويجزي عليه، كما جاء في الصحيح «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى ألوانكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ أي من أجل ذلك سخر لكم البدن ﴿لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا

هَدَنَّاكُمْ أَي لتعظموه كما هداكم لدينه وشرعه، وما يحبه ويرضاه. ونهاكم عن فعل ما يكرهه ويأباه ﴿وَنَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي وبشر يا محمد المحسنين، أي في عملهم القائمين بحدود الله، المتبعين ما شرع لهم، المصدقين الرسول فيما أبلغهم وجاءهم به من عند ربه عز وجل.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ ﴿١٣٨﴾

يخبر تعالى أنه يدفع عن عباده الذين توكلوا عليه، وأنابوا إليه شر الأشرار، وكيد الفجار، ويحفظهم ويكلاهم وينصرهم، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ [الزمر: 36] وقال ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ أي لا يحب من عباده من اتصف بهذا، وهو الخيانة في العهود والمواثيق أي لا يفي بما قال، والكفر: الجحد للنعم فلا يعترف بها.

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ﴿١٣٩﴾

نزلت في محمد ﷺ وأصحابه حين أخرجوا من مكة، فقال أبو بكر عند نزولها: فعرفت أنه سيكون قتال ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ أي هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكن هو يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿١٤٠﴾

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق يعني محمداً ﷺ ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان لهم إلى قومهم إساءة، ولا كان لهم ذنب إلا أنهم وحدوا الله وعبدوه لا شريك له ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ﴾ أي لولا أنه يدفع بقوم عن قوم ويكف شرور أناس عن غيرهم بما يخلقه ويقدره من الأسباب لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف ﴿لَفُتِنَتِ صَوَامِعُ﴾ وهي المعابد الصغار للربان ﴿وَبِيَعٌ﴾ وهي أوسع منها، وأكثر عابدين فيها، وهي للنصارى أيضاً، وقيل إنها كنائس اليهود ﴿وَصَلَوَاتٌ﴾ الكنائس، أو كنائس اليهود، وهم يسمونها صلوات أو مساجد لأهل الكتاب، ولأهل الإسلام بالطرف، وأما المساجد فهي للمسلمين ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير عائد إلى المساجد لأنها أقرب المذكورات، وقيل الجميع يذكر فيها اسم الله كثيراً ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ كقوله: ﴿إِنْ تَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيَتَّبِعْ أَعْدَاءَكُمْ﴾ [حمد: 7] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وصف نفسه بالقوة والعزة، فبقوته خلق كل شيء فقدره تقديراً، وبعزته لا يقهره قاهر، ولا يغلبه غالب، بل كل شيء ذليل لديه، فقير إليه، ومن كان القوي العزيز ناصره فهو المنصور، وعدوه هو المقهور.

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾

عن عثمان بن عفان قال: فينا نزلت ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فأخرجنا من ديارنا بغير حق إلا أن قلنا: ربنا الله ثم مكنا في الأرض فأقمنا الصلاة، وآتينا الزكاة، وأمرنا بالمعروف، ونهينا عن المنكر، والله عاقبة الأمور، فهي لي ولأصحابي.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمٌ إِزْهِيمَ وَقَوْمٌ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾

يقول تعالى مسلماً لنبيه محمد ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ إلى أن قال ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ أي مع ما جاء به من الآيات البينات، والدلائل الواضحات ﴿وَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي أنظرتهم وأخرتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كان إنكارهم عليهم، ومعاقبتي لهم؟ وذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَاقُ﴾ [النارعات: 24] وبين إهلاك الله له أربعين سنة. وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبي ﷺ أنه قال «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ ﴿وَكَذَلِكَ أَخَذُوا آلَ فِرْعَوْنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُمْ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٦﴾﴾ [مود: 102].

﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِبَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبُرُّ مُعْتَلِّقٌ ۗ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾

﴿فَكَانَ مِن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي كم من قرية أهلكتناها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي مكذبة لرسولها ﴿فِيهَا خَاوِبَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ سقفها أي قد خربت منازلها، وتعطلت حواضرها ﴿وَيَبُرُّ مُعْتَلِّقٌ﴾ أي لا يستفي منها ولا يردها أحد بعد كثرة واردتها، والازدحام عليها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ يعني المبيض بالجص، أو المشيد: المنيع الحصين.

﴿أَفَنْتَرَىٰ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾

﴿أَفَنْتَرَىٰ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بأبدانهم وبفكرهم أيضاً، وذلك كاف ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ أي فيعتبرون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَىٰ الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي ليس العمى عمى البصر، وإنما عمى البصيرة، إن كانت القوة الباصرة سليمة، فإنها لا تنفذ إلى العبر، ولا تدري ما الخبر.

﴿وَسْتَعْلِفُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ ﴿٤٧﴾

يقول تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَسْتَعْلِفُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ أي هؤلاء الكفار الملحدون المكذبون بالله، وكتابه ورسوله واليوم الآخر. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِمَّنْ عِنْدِكَ فَامْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْبِتْنَا بِعَذَابِ الْبَاسِ﴾ ﴿٣٢﴾ [الأنفال: 32] ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ أي الذي وعد من إقامة الساعة، والانتقام من أعدائه، والإكرام لأوليائه ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ أي هو تعالى لا يعجل، فإن مقدار ألف سنة من خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حكمه، لعلمه بأنه على الانتقام قادر، وأنه لا يفوته شيء، وإن أجل وأنظر وأمل، ولهذا قال بعد هذا:

﴿وَكَأَنِّ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٨﴾

﴿وَكَأَنِّ مِّنْ قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِنَّ الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٨﴾ وفي الحديث «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائة سنة» رواه الترمذي والنسائي.

﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾

يقول تعالى لنبيه ﷺ حين طلب منه الكفار وقوع العذاب، واستعجلوه به ﴿قُلْ يَتَّيْبُهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ﴿٤٩﴾ أي إنما أرسلني الله إليكم نذيراً بين يدي عذاب شديد، وليس إلي من حسابكم من شيء، أمركم إلى الله، إن شاء عجل لكم العذاب، وإن شاء أخره عنكم، وإن شاء تاب على من يتوب إليه، وإن شاء أضل من كتب عليه الشقاوة، وهو الفعال لما يشاء ويريد ويختار ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ، وَهُوَ سَرِيْعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: 41].

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنتم قلوبهم، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أي مغفرة لما سلف من سيئاتهم، ومجازاة حسنة على القليل من حسناتهم. أو ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ الجنة.

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾ ﴿٥١﴾

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ يشبطون الناس عن متابعة النبي ﷺ ﴿مُعْجِزِينَ﴾ مراغمين ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ﴾ وهي النار الحارة الموجعة الشديد عذابها ونكالها. أجازنا الله منها. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ [النحل: 88].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾﴾

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرائيق، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة لظنهم أن مشركي قريش قد أسلموا، ولكنها من طريق مرسله، ولم أرها مسندة من وجه صحيح، والله أعلم. عن سعيد بن جبير قال: قرأ رسول الله ﷺ بمكة النجم، فلما بلغ هذا الموضع ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُرَىٰ ﴿٦﴾ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخِرَىٰ ﴿٢٥﴾﴾ [النجم: 19، 20] قال: فألقى الشيطان على لسانه: تلك الغرائيق العلى، وإن شفاعتهن لترجى، قالوا: ما ذكر آلهتنا بخير قبل اليوم فسجد وسجدوا، فأنزل الله ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ هذا فيه تسليه من الله لرسوله ﷺ أي لا يهولئك فقد أصاب مثل هذا من قبلك من المرسلين والأنبياء ﴿فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه، فيبطل الله ما يلقي الشيطان ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي بما يكون من الأمور والحوادث لا تخفى عليه خافية، ﴿حَكِيمٌ﴾ أي في تقديره وخلقه وأمره، له الحكمة التامة، والحجة البالغة.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ أي شك وشرك وكفر ونفاق كالمشركين حين فرحوا بذلك، واعتقدوا أنه صحيح من عند الله، وإنما كان من الشيطان ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هم المشركون، أو هم اليهود ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي في ضلال ومخالفة وعناد بعيد أي من الحق والصواب.

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي وليعلم الذين أوتوا العلم النافع الذي يفرقون به بين الحق والباطل، والمؤمنون بالله ورسوله أن ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك الذي أنزله بعلمه وحفظه وحرسه أن يختلط به غيره، بل هو كتاب عزيز ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤١﴾﴾ [فصلت: 42] وقوله: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يصدقوه ويتقادوا ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخضع وتذل له قلوبهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصراط المستقيم الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات. وقد أوجب عن قصة الغرائيق بأجوبة من أطفها أن الشيطان أوقع في مسامع المشركين

ذلك - تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترجي - فتوهما أنه صدر عن رسول الله ﷺ، وليس كذلك في نفس الأمر، بل إنما كان من صنيع الشيطان لا من رسول الرحمن ﷺ والله أعلم.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ

عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن الكفار أنهم لا يزالون في مرية، أي في شك من هذا القرآن ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ فجأة، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ هو يوم بدر، أو هو يوم القيامة، لا ليل له، وهذا هو القول الصحيح، وإن كان يوم بدر من جملة ما أوعدوا به.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ

النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾﴾

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ كقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤١﴾﴾ [الفاحة: 4] وقوله: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾ [الفرقان: 26] ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي آمنت قلوبهم وصدقوا بالله ورسوله، وعملوا بمقتضى ما علموا، وتوافق قلوبهم وأقوالهم وأعمالهم ﴿فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي لهم النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول ولا يبسد.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٥٧﴾﴾

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي كفرت قلوبهم بالحق وجحدته وكذبوا به وخالفوا الرسل واستكبروا عن اتباعهم ﴿فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ﴾ أي مقابلة استكبارهم وإبانهم عن الحق. ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60] أي صاغرين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا

وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر تعالى عن من هاجر في سبيل الله ابتغاء مرضاته، وطلباً لما عنده وترك الأوطان والأهلين والخلان، وفارق بلاده في الله ورسوله، ونصره لدين الله، ثم قتلوا، أي في الجهاد، أو ماتوا أي حنف أنفسهم من غير قتال على فرشهم فقد حصلوا على الأجر الجزيل، والثناء الجميل، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [النساء: 100] وقوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أي ليحجرين عليهم من فضله ورزقه من الجنة ما تقر به أعينهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾.

﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ (٥٩)

﴿لِيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ رِضْوَانِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ أي بمن يهاجر ويجاهد في سبيله وبمن يستحق ذلك ﴿حَلِيمٌ﴾ أي يحلم ويصفح ويغفر لهم الذنوب، ويكفرها عنهم بهجرتهم إليه، وتوكلهم عليه، فأما من قتل في سبيل الله من مهاجر أو غير مهاجر فإنه حي عند ربه يرزق كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: 169].

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ (٦٠)

﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِّبَ بِهِ...﴾ نزلت في سرية من الصحابة لقوا جمعاً من المشركين في شهر محرم فناشدهم المسلمون لثلاثا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبى المشركون إلا قتالهم وبغوا عليهم فقاتلهم المسلمون فنصرهم الله عليهم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (٦١)

يقول تعالى منبهاً على أنه الخالق المتصرف في خلقه بما يشاء، كما قال ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمَلِكَ وَمَنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [٦١] ﴿يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْتَضِي مَنْ تَشَاءُ بِعَمْرِ حِسَابٍ﴾ [٦٧] [آل عمران: 26، 27] ومعنى إيلاجه الليل في النهار، والنهار في الليل إدخاله من هذا في هذا، ومن هذا في هذا، فتارة يطول الليل ويقصر النهار كما في الشتاء، وتارة يطول النهار ويقصر الليل كما في الصيف، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال عباده، بصير بهم، لا تخفى عليه منهم خافية في أحوالهم وحركاتهم وسكناتهم.

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢)

﴿ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي الإله الحق الذي لا تنبغي العبادة إلا له، لأنه ذو السلطان العظيم الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وكل شيء فقير إليه، دليل لديه ﴿وَأَنْتَ مَا يَكْفُرُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ أي من الأصنام والأنداد والأوثان، وكل ما عبد من دون الله فهو باطل لأنه لا يملك ضراً ولا نفعاً. وقوله: ﴿وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ كما قال ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشورى: 4] وقال ﴿الْكَبِيرُ الْمُتَعَالَى﴾ [الرعد: 9] فكل شيء تحت قهره وسلطانه وعظمته، لا إله إلا هو، ولا رب سواه، لأنه العظيم الذي لا أعظم منه، العلي الذي لا أعلى منه، الكبير الذي لا أكبر منه، تعالى وتقدس وتنزه عز وجل عما يقول الظالمون المعتدون علواً كبيراً.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣)

وهذا أيضاً من الدلالة على قدرته، وعظيم سلطانه، وأنه يرسل الرياح فتثير سحاباً فتُمْطر على الأرض الحرز التي لا نبات فيها، هامة يابسة سوداء ممحلة ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ أي خضراء بعد يابسها ومحولها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ أي عليم بما في أرجاء الأرض وأقطارها وأجزائها من الحب، وإن صغر، لا يخفى عليه خافية، فيوصل إلى كل منه قسطه من الماء فينبته به.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٤)

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ملكه جميع الأشياء، وهو غني عما سواه، وكل شيء فقير إليه عبد لديه.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (١٥)

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ أي من حيوان وجماد وزروع وثمار ﴿وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي بتسخيره وتسييره أي في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيبة، ورفق وتؤدة، فيحملون فيها ما شاؤوا من تجارات وبضائع ومنافع من بلد إلى بلد، وقطر إلى قطر، ويأتون بما عند أولئك إلى هؤلاء كما ذهبوا بما عند هؤلاء إلى أولئك مما يحتاجون إليه ويطلبونه ويريدونه ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه، ولهذا قال ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي مع ظلمهم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ (١٦)

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ أي خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً يذكر فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أي يوم القيامة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ أي جحود.

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُكَ فِي الْأَمْرِ وَأُدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَلْعَلَّافِ هُدًى مُسْتَقِيمٌ﴾ (١٧)

يخبر تعالى أنه جعل لكل قوم منسكاً، وأصل المنسك في كلام العرب هو الموضع الذي يعتاده الإنسان ويتردد إليه، إما لخير أو شر، ولهذا سميت مناسك الحج بذلك لتردد الناس إليها، وعكوفهم عليها ﴿هُم نَاسِكُوهُ﴾ أي فاعلوه، أي هؤلاء الذين لهم مناسك وطرائق إنما يفعلون هذا

عن قدر الله وإرادته فلا تتأثر بمنازعتهم لك، ولا يصرفك ذلك عما أنت عليه من الحق، ولهذا قال ﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي طريق واضح مستقيم، موصل إلى المقصود.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ كقوله: ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلِ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنشُرَ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يونس: 41] وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تهديد شديد، ووعيد أكيد.

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٧٩﴾﴾

وهذه الآية كقوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلِ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ﴾ [الشورى: 15].

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٩﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال علمه بخلقه، وأنه محيط بما في السماوات وما في الأرض، فلا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، وأنه تعالى علم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب ذلك في كتابه اللوح المحفوظ كما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧٩﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن المشركين فيما جهلوا وكفروا وعبدوا من دون الله ما لم ينزل به سلطاناً، يعني حجة وبرهاناً ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي ولا علم لهم فيما اختلقوه واثفقوه، وإنما هو أمر تلقوه عن آبائهم وأسلافهم، بلا دليل، ولا حجة، وأصله مما سول لهم الشيطان وزينه لهم، ولهذا توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي من ناصر ينصرهم من الله فيما يحل بهم من العذاب والنكال.

﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا قُلِ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَمُ النَّارِ وَعَدَّاهُ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٩﴾﴾

﴿وَإِذَا نُتِلَّىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا ذكرت لهم آيات القرآن والحجج الواضحات على توحيد

الله، وأنه لا إله إلا هو، وأن رسله الكرام حق وصدق ﴿يَكَادُرُونَ بِكَادُورِكَ يَسْطُورُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا﴾ أي يكادون يبادرون الذين يحتجون عليهم بالدلائل الصحيحة من القرآن، ويسطون إليهم أيديهم وأستهم بالسوء ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لهؤلاء ﴿أَفَأُنذِرُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَّهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ أي النار وعذابها ونكالها أشد وأشق وأطم وأعظم مما تخوفون به أولياء الله المؤمنين في الدنيا، وعذاب الآخرة على صنيعكم هذا أعظم مما تنالون منهم إن نلتهم بزعمكم وإرادتكم. وقوله: ﴿وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ أي وبسبب النار مقيلاً ومنزلاً ومرجعاً وموتلاً ومقاماً ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: 66].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾

يقول تعالى منبهاً على حقارة الأصنام وسخافة عقول عابديها ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ﴾ أي لما يعبده الجاهلون، المشركون به ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ أي أنصتوا وتفهموا ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ أي لو اجتمع جميع ما تعبدون من الأصنام والأنداد على أن يقدروا على خلق ذباب واحد ما قدروا على ذلك. وقد روى الإمام أحمد مرفوعاً «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا مثل خلقي ذرة أو حبة» وأخرجه صاحبها الصحيح ﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ أي هم عاجزون عن خلق ذباب واحد، بل أبلغ من ذلك، عاجزون عن مقاومته والانتصار منه لو سلبها شيئاً من الذي عليها من الطيب، ثم أرادت أن تستنقذه منه لما قدرت عليه، هذا والذباب من أضعف مخلوقات الله وأحقرها، ولهذا قال ﴿ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الطالب الصنم، والمطلوب الذباب، وقيل: الطالب العابد والمطلوب الصنم.

﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾

﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ أي ما عرفوا قدر الله وعظمته حين عبدوا معه غيره من هذه التي لا تقاوم الذباب لضعفها وعجزها ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ أي هو القوي الذي بقدرته وقوته خلق كل شيء ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَبُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27] ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ ﴿١٧﴾ إِنَّهُ هُوَ بَدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ [البروج: 12، 13] وقوله: ﴿عَزِيزٌ﴾ أي قد عز كل شيء فقهره وغلبه فلا يمانع ولا يغالب لعظمته وسلطانه، وهو الواحد القهار.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾

يخبر تعالى أنه يختار من الملائكة رسلاً فيما يشاء من شرعه وقدره ومن الناس لإبلاغ رسالته ﴿إِنَّ

اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦٥﴾ أي سميع لأقوال عباده، بصير بهم، عليم بمن يستحق ذلك منهم، كما قال ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: 124].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٦٦﴾﴾

أي يعلم ما يفعل برسله فيما أرسلهم به فلا يخفى عليه شيء من أمورهم كما قال ﴿عَلَيْمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٦٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: 26، 27] فهو سبحانه رقيب عليهم شهيد على ما يقال لهم، حافظ لهم، ناصر لجنابهم.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ

تُقَالِحُونَ ﴿٦٧﴾﴾

اختلف الأئمة رحمهم الله في هذه السجدة الثانية من سورة الحج، هل هو مشروع السجود فيها أم لا؟ على قولين، وفي الحديث عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ «فضلت سورة الحج بسجديتين، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما».

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ ۗ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى

النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٦٨﴾﴾

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۗ﴾ أي بأموالكم وألستكم وأنفسكم، كما قال ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۗ﴾

[آل عمران: 102] وقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ أي يا هذه الأمة، الله اصطفاكم واختاركم على سائر الأمم،

وفضلكم وشرفكم، وخصكم بأكرم رسول، وأكمل شرع ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ أي ما

كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجاً ومخرجاً. ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ

إِبْرَاهِيمَ ۗ﴾ أي، بل وسع الدين عليكم، كلمة أبيكم إبراهيم، أو ألزموا ملة أبيكم إبراهيم ﴿هُوَ

سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني إبراهيم، وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً

لَكَ﴾ [البقرة: 128] قال ابن جرير: وهذا لا وجه له لأنه من المعلوم أن إبراهيم لم يسم هذه الأمة في

القرآن مسلمين، وقد قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ قال مجاهد: الله سماكم

المسلمين من قبل في الكتب المتقدمة، وفي الذكر ﴿وَفِي هَذَا﴾ يعني القرآن، وهذا هو الصواب،

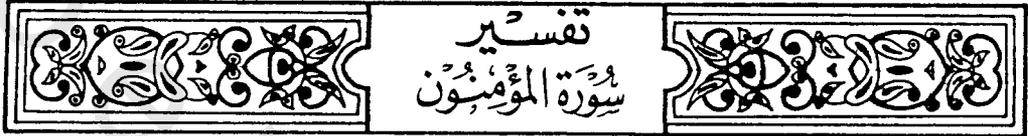
لأنه تعالى قال ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ وقوله: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ

وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي إنما جعلناكم هكذا أمة وسطاً عدولاً خياراً مشهوداً بعدالتكم عند جميع

الأمم لتكونوا يوم القيامة ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل

أمة سواها، فلهذا تقبل شهادتكم عليهم يوم القيامة من أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم والرسول يشهد

على هذه الأمة أنه بلغها ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبَدِّلْ دِينَهُ ۚ وَلَا يَسْمَعُ لِسَاطِرِ الْمُشْرِكِينَ ۚ قَلِيلٌ مَّا يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي قابلوا هذه النعمة العظيمة بالقيام بشكرها، فأدوا حق الله عليكم في أداء ما افترض، وطاعة ما أوجب وترك ما حرم، ومن أهم ذلك إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وهو الإحسان إلى خلق الله بما أوجب للفقير على الغني من إخراج جزء نزر من ماله في السنة للضعفاء والمحاويج ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللهِ﴾ أي اعتضدوا بالله واستعينوا به، وتوكلوا عليه وتأييدوا به ﴿هُوَ مَوْلَاكُمْ﴾ أي حافظكم وناصركم، ومظفركم على أعدائكم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ يعني نعم الولي ونعم الناصر من الأعداء.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

في مسند الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب يقول: كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل، فلبثنا ساعة فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال «اللهم زدنا ولا تنقصنا وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا، ثم قال: «لقد أنزل علي عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم العشر. و﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ قد فازوا أو سعدوا، وحصلوا على الفلاح، وهم المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ خائفون ساكنون، والخشوع خشوع القلب.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ أي عن الباطل، وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: 72].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ المراد ههنا زكاة الأموال، ويحتمل أن يكون المراد زكاة النفس من الشرك والدنس.